

فنان الهربوب

بيتر ووكر يقدم لمحة
عن أنغوس دايتون
الذي ابتكر منهجيات
تربط بين النظرية
والقياس والسياسة
والحياة

كان

حد تعبيره «مكانا قاسيا للغاية وقتها». وكان دايتون في صغره يهرب من واقعه إلى كتبه عن الهند وغيرها من الأماكن البعيدة. وكان يحب كذلك الأماكن الفتوحة، فكثيرا ما كان يقضي فترة بعد الظهر في اللعب في حديقة ذا ميدوز (The Meadows)، وهي عبارة عن فضاء واسع مفتوح كان قد بدأ وقتها في التحول مجددا إلى منطقة حدائق بعد أن كان قد تم تقسيمه إلى أراض زراعية تم توزيعها على المواطنين لتشجيعهم على «الزراعة من أجل النصر» خلال الحرب العالمية الثانية التي انتهت قبل أيام قليلة من ولادة دايتون.

وفي عمر التاسعة، انتقل دايتون مع عائلته إلى قرية صغيرة قرب الحدود بين اسكتلندا وبريطانيا حيث أثار انتباه معلميه في المدرسة. وكان ذلك بمثابة دافع كبير لأبويه، لا سيما والده الذي لم يسمح له بدخول المدرسة الثانوية ولكنه استكمل دراسته لاحقا في الفصول الدراسية

لم تكن مسيرته المهنية في بدايتها عبارة عن مجموعة من النجاحات المستمرة، بل كان يشعر أحيانا بأنه لا يحرز أي تقدم يذكر مما أصابه بالإحباط.

الليلية وأصبح مهندسا وشجع ابنه على الدراسة بكل حماس وشغف. وقد حقق دايتون حلم والده الصعب عندما فاز لاحقا بمنحة إلى مدرسة فيتيس العريقة — في عمر الثلاثة عشر عاما كأحد الصبيين اللذين تم قبولهما من المناطق المعوزة في ذلك العام.

وفي مدرسة فيتيس، كان الطلاب يتعلمون بشكل مستقل، وهو نهج أجاد دايتون كثيرا. فقد أصبح التعلم بمثابة هواية. وعلى غرار الصبية الآخرين، التحق دايتون بفريق البحرية الملكية في مدرسته، وكان يقضي فترات الصيف في البحر، وسافر إلى الخارج للمرة الأولى — إلى مدينة بريتانى في فرنسا حيث كان «الطلاب جميعهم ينزلون إلى الشواطئ ويشترون النبيذ الأحمر الرخيص».

وبعدما أتم دايتون تعليمه الثانوي، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة الرياضيات ولكنه فقد اهتمامه بها سريعا نظرا لأنها كانت «تدرس بطريقة سيئة للغاية» في ذلك الحين. وبدأ يبحث عن مجال آخر، وتم توجيهه إلى دراسة الاقتصاد ولم تكن لديه أي فكرة عن ماهية «الاقتصاد».

وزداد اهتمام دايتون بهذا المجال بمرور الوقت. وقضى إحدى الإجازات الصيفية في قراءة كتب عن الاقتصاد وكان يعمل حينها في بيع الملابس على متن سفينتي الملكة إليزابيث والملكة ماري اللتين كانتا تعبران المحيط الأطلنطي. وكان يغادر السفينة كل أسبوعين في ميناء بيبير ٩٢ في نيويورك، وكانت المنطقة «مزعجة للغاية وزاخرة بالمطاعم الرديئة»، وكان يبتعد عن الضفة تدريجيا لاستكشاف باقي أنحاء مانهاتن.

ولدى عودة الطلاب إلى كامبريدج، كانت تلك اللحظات من الواقع الصعب للحياة تحتل الجانب الأكبر من

ديسمبر من عام ٢٠١٥ شهرا حافلا بالأحداث بالنسبة لأنغوس دايتون. فكانت هناك رحلته إلى ستوكهولم لتلقي جائزة نوبل في الاقتصاد من غوستاف ملك السويد. ثم كانت هناك دراسته الرائدة الجديدة التي ألفها بالاشتراك مع آن كيس عن الوفاة في منتصف العمر في الولايات المتحدة الأمريكية والتي لفتت انتباه الرأي العام إلى الجدل الأوسع نطاقا حول عدم المساواة وثبات الأجور. وفي مقابلة مع دايتون في مكتبه بجامعة برينستون، يتذكر قائلا وقد كست اللكنة الأمريكية لغته الاسكتلندية الرقيقة «عندما تفوز بجائزة نوبل، تجد اهتماما كبيرا من الصحافة، ولم أعتقد وقتها أنه من الممكن تحقيق إنجاز أهم من ذلك، ولكن دراستنا أثارت مزيدا من الاهتمام بالفعل — كنت أشعر وكأن إحصارا قد ثار ثم بدأ في الانحسار وتبعه إحصار آخر أشد ضراوة».

وفي الدراسة، توصل دايتون وأن كيس، وهي اقتصادية بارزة وزميلة بجامعة برينستون، إلى اكتشاف مدهش: فبعد عقود من التقدم، شهدت معدلات وفاة الأمريكيين متوسطي العمر من ذوي البشرة البيضاء ثباتا أو ارتفاعا بعد أواخر تسعينات القرن الماضي، ويتمثل السبب الأكبر وراء ذلك في الانتحار وإدمان المشروبات الكحولية والمواد المخدرة مثل مركبات الأفيون. وعندما التقى كيس ودايتون، وهما متزوجان، بالرئيس الأمريكي باراك أوباما بالبيت الأبيض في حفل استقبال الأمريكيين الفائزين بجائزة نوبل، قاطع أوباما دايتون الذي كان يقدم إليه كيس قائلا «أنا أعرف من تكون الدكتورة كيس، وسوف أتحدث معكما عن دراستكما».

وفي الدراسة التي تحمل عنوان «تزايد معدلات الإصابة بالأمراض والوفاة في منتصف العمر بين الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء من أصل غير إسباني في القرن الحادي والعشرين» (Rising Morbidity and Mortality in Midlife among White Non-Hispanic Americans in the 21st Century)، يتناول المؤلفان وباء إدمان المواد الأفيونية، مشيرين إلى أنه تعدى مجرد كونه أزمة صحة عامة — وأصبح أزمة اقتصادية أيضا. يقول دايتون «حتى وإن تعافيت من الإدمان، فإن ذلك لا يحل المشكلة نظرا لوجود مشكلة أكثر عمقا — فبالنسبة للمواطنين الذين لا يحملون مؤهلات دراسية بخلاف الشهادة الثانوية، أخذت الأجور الحقيقية في التراجع على مدار الخمسين عاما الماضية».

وقد كانت الجائزة والدراسة تتويجا لحياة أكاديمية ثرية حفلت ببحوث مهمة ومتنوعة — شملت مجالات مثل الصحة العامة والفقر والاستهلاك والإدخار وغيرها كثير. ويقول أورلي أشنفلتر، أستاذ الاقتصاد بجامعة برينستون، «لقد استغل دايتون مهاراته المتميزة في مجال القياس الكمي لمناقشة مجموعة واسعة من الموضوعات في الاقتصاد والعلوم الأخرى. وما يبدية دايتون من اتزان في استخدام الأدلة والشواهد واهتمام بالبيانات يعد أكثر أهمية حاليا من أي وقت مضى، نظرا لأن الآراء الحماسية التي لا تستند إلى أي شواهد أصبحت حاليا قوة سياسية كبيرة ومتنامية».

وتبدأ قصة دايتون في عالم مختلف تماما. فقد نشأ في إدنبرة في خمسينات القرن الماضي، وكانت على

وفي جامعة بريستول، وضع دايتون «نموذج الطلب الأقرب للمثالية» بالتعاون مع جون ميلباور الذي كان يعمل في كلية بيركبيك بلندن آنذاك. والنموذج، كما يوحي اسمه، لا يدعي الكمال — إنما هو أقرب للمثالية — ولكنه يعطي صورة أكثر شمولاً وواقعية لسلوك المستهلكين مقارنة بالمحاولات السابقة. ومن المزايا الأخرى للنموذج أنه يمكنه التنبؤ بدقة أكبر بتأثير السياسات، مثل التغييرات الضريبية، على مختلف مجموعات الدخل والمجموعات الديمغرافية. وقد أشارت لجنة نوبل فيما بعد إلى أن النموذج «لا يزال، حتى بعد مرور ٣٥ عاماً، إحدى الركائز التي يُستند إليها في تقدير الطلب في مختلف أنحاء العالم، سواء كان هذا التقدير يقوم على بيانات إجمالية أم فردية أم أسرية».

وقد حصل دايتون على إجازة تفرغ لقضاء السنة الأكاديمية ١٩٧٩-١٩٨٠ في جامعة برينستون — وكان ذلك تمهيداً لانتقاله بصفة دائمة في عام ١٩٨٣ — وأعجب كثيراً بمواردها ومستواها الفكري. وكانت المشكلة الوحيدة في إجازة التفرغ أن جامعة برينستون «لم تدفع سوى راتب تسعة أشهر، وكان علي أن أجد عملاً في فترة الصيف». وقد وجد بالفعل وظيفة في البنك الدولي، حيث أجرى بحثاً جديداً بعنوان «دراسة قياس المستويات المعيشية» كان الهدف منه فهم تأثير السياسات على الحياة الاجتماعية في الاقتصادات النامية. وكان لدايتون دور محوري في تطور هذه الدراسة، لا سيما وضع مسوح قطاع الأسر.

ومع تقدم المسيرة المهنية لدايتون، أصبحت مسوح قطاع الأسر من أهم إسهاماته. وقد استحدث أساليب لاستخدام وتفسير هذه المسوح لوصف الواقع العملي بمزيد من الدقة من خلال دراسة الاستهلاك وتحليل مجموعات السكان الذين ولدوا في نفس الفترات وتقدير الأسعار السوقية المحلية. وأجرى دايتون جزءاً كبيراً من عمله في الهند مستحضراً ولعه الشديد بهذا البلد في مرحلة الطفولة.

مناقشاتهم. ويقول دايتون «كنا جميعاً نقرأ الصحف اليسارية ونعمل من أجل الثورة — أياً ما كان يعنيه ذلك — ولكن ذلك كان يعني في معظم الوقت الجلوس واحتساء الخمر ولعب الكوتشينة».

وبعد تخرج دايتون في عام ١٩٦٧ وعمله لفترة قصيرة في بنك إنجلترا المركزي، عاد إلى كامبريدج لدراسة الدكتوراه والعمل كباحث مساعد — ولكي يكون مع زوجته الأولى ماري أن بيرنسايد. وانتقلاً لاحقاً إلى قرية قريبة وأنجبا طفلين، هما ريببكا وأدم.

وأثناء عمله، وجد دايتون في ريتشارد ستون، الذي فاز بجائزة نوبل لاحقاً، مرشداً، وعمل كلاهما معاً على تحليل الادخار والطلب — وهما أساسان من أساسيات الاقتصاد. وقد توصل دايتون مبكراً إلى فكرة مهمة عندما استغل تردده في شراء قهوة في بريطانيا في سبعينات القرن الماضي التي شهدت ارتفاعاً في معدلات التضخم كدليل على أن التضخم غير المتوقع من شأنه، على عكس الفكرة التقليدية الشائعة، المساعدة على زيادة المدخرات — وليس تراجعها. وقد استغرب المشككون عندما أعلنت الحكومة ارتفاعاً في مدخرات قطاع الأسر، على نحو ما توقعته نظرية دايتون.

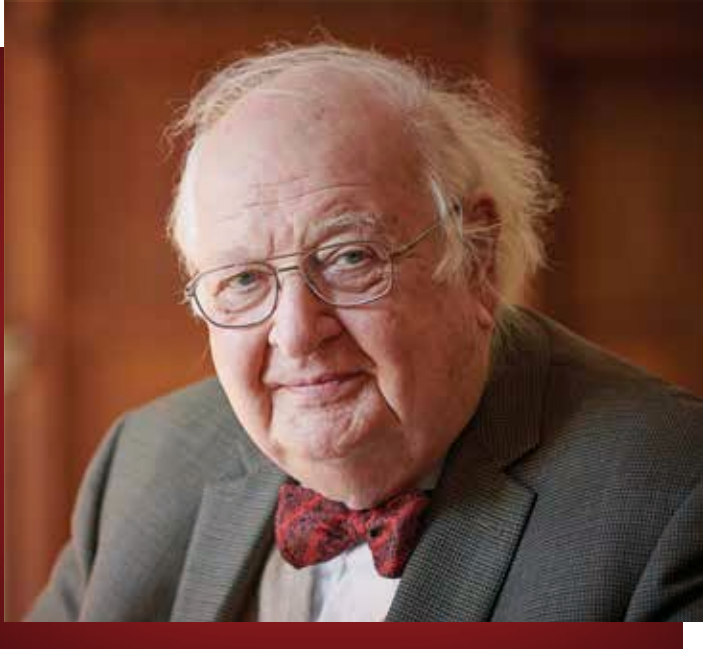
وقد خلف دايتون انطباعاً قوياً في الأذهان، ولكن مسيرته الأكاديمية المبكرة لم تكن سلسلة من النجاحات المستمرة، بل كان يشعر أحياناً بأنه لا يحرز أي تقدم يذكر مما أصابه بالإحباط. ولم يقتصر الأمر عليه. فدايتون وزميله في لعبة التنس، ميرفن كينغ الذي تقلد فيما بعد منصب محافظ بنك إنجلترا المركزي، اشتركا في شعورهما المتبادل والمبكر بالإحباط بسبب عدم حصولهما على درجة الأستاذية. ولم يكن أي منهما قد بلغ عامه الثلاثين. ولكن ذلك تغير في عام ١٩٧٥ عندما أصبح دايتون أستاذاً للاقتصاد القياسي في جامعة بريستول. وقبل ذلك بأشهر قليلة، توفت ماري أن، وسعى دايتون إلى الانتقال إلى مكان جديد لأسباب شخصية ومهنية.

الصحة والأجور

ما الأسباب وراء هذه الاتجاهات المقلقة وفقاً لدراسة كيس ودايتون؟ في أواخر تسعينات القرن الماضي، ازداد انتشار المسكنات التي تصرف بوصفات طبية، والمعروفة بالمركبات الأفيونية — وهي مواد أفيونية اصطناعية، وهي نفس الفترة تقريباً التي شهدت ارتفاع معدلات الوفاة والإصابة بالأمراض. وقد يكون لانعدام الأمن الاقتصادي دوراً أيضاً، نظراً لأن المواطنين في منتصف العمر من ذوي البشرة البيضاء الأكثر فقراً كانوا أكثر تأثراً بتراجع نمو متوسط الأجور الأمريكية والتحول من نظام التقاعد ذي المزايا المحددة إلى نظام التقاعد ذي الاشتراكات المحددة الذي ينقل المخاطر المالية إلى الموظف. ويحذر كل من كيس ودايتون من أن عدم القدرة على السيطرة على هذا الوباء يمكن أن ينتج عنه «جيل ضائع».

ووفقاً لدراستهما اللاحقة عن الموضوع نفسه والتي صدرت عام ٢٠١٧ بعنوان «معدلات الوفاة والإصابة بالأمراض في القرن الحادي والعشرين» (Mortality and Morbidity in the 21st Century)، استمر هذا الاتجاه في عام ٢٠١٥.

في دراسة «تزايد معدلات الإصابة بالأمراض والوفاة في منتصف العمر بين الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء من أصل غير إسباني في القرن الحادي والعشرين»، الصادرة عام ٢٠١٥، يتناول المؤلفان أن كيس وأنفوس دايتون أفكاراً مهمة عن وباء إدمان المواد الأفيونية الذي يقارن تأثيره بأزمة الإيدز. وقد توصلوا إلى أن معدلات وفاة الرجال والنساء من ذوي البشرة البيضاء من أصل غير إسباني في المرحلة العمرية من ٤٥ إلى ٥٤ عاماً ارتفعت بمقدار ٠,٥٪ سنوياً خلال الفترة من ١٩٩٩ إلى ٢٠١٣ بعد تراجعها خلال العقد الماضيين. وتعد المخدرات والمشروبات الكحولية والانتحار من أهم أسباب ارتفاع معدلات الوفاة التي كانت أكثر تركيزاً بين المواطنين غير الحاصلين على تعليم عالٍ. كذلك ارتفعت معدلات الإصابة بالأمراض، مع زيادة كبيرة في التقارير التي تتناول ضعف الصحة الجسدية والعقلية. وعلى العكس، استمر تراجع معدلات الوفاة بين المجموعات الديمغرافية الأمريكية الأخرى وفي الاقتصادات المتقدمة الأخرى.



الاقتصادي أنغوس دايتون يرى أن المساعدات الأجنبية يمكن أن تكون لها أضرارها.

كيس ودايتون الصادرة عام ٢٠١٧ بعنوان «معدلات الوفاة والإصابة بالأمراض في القرن الحادي والعشرين».

وقد التقى دايتون وكيس في جامعة برينستون، وتزوجا عام ١٩٩٧ ويعملان اليوم في مكتبين متجاورين. ويعترف دايتون بأن زواج الزملاء له مزايا عديدة ويجلب شعورا كبيرا بالسعادة، ولكنه ينطوي أيضا على مفاضلات لم يجدا لها حلا إلى الآن. «يطلب الناس منا أن نتحدث في كل مكان طوال الوقت، وإذا تحدثت أنا وقامت أن بالتدريس، سيكون من الصعب علينا للغاية أن نجد وقتا للقيام بعملنا». وفي أوقات فراغهم القليلة، يحب الاثنان ممارسة صيد السمك بذبابة الصيد الصناعية والطهي والسفر.

وفي ديسمبر ٢٠١٦، بعد عام واحد على مضي الأيام الحافلة التي شهدت فوز دايتون بجائزة نوبل وصدور دراسة معدلات الوفاة، استقل دايتون تاكسي لندن الأسود بصحبة كيس وولده آدم وطلب من السائق أن يقلهم إلى قصر باكينغهام. وسألهم سائق التاكسي قائلا «لما أنتم هنا؟» غير متأكد مما إذا كانوا سائحين أم ضيوف ملكيين. أجاب ولده مازحا «لقد اخترع أبي نوعا جديدا من حاملات ورق المرحاض، وأعجبت الملكة به كثيرا». وبمجرد دخولهم إلى القصر، منح الأمير ويليام، دوق كامبريدج، لقب فارس إلى دايتون.

ويقول الأستاذ سير أنغوس دايتون «إنه لتكريم كبير للعلماء وأمر أكثر متعة من امتطاء جواد وارتداء درع والإمساك برمح والسير إلى قاعة المعركة من أجل نصره الملكة». **FD**

بيتر ووكر هو مسؤول تواصل أقدم في إدارة التواصل بصندوق النقد الدولي.

وخلال الجزء الأكبر من ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، توصل دايتون إلى مزيد من الاكتشافات الرائدة في دراسة الاستهلاك، حيث اكتشف ضرورة الربط بين السلوك الفردي والمؤشرات الإجمالية. كذلك حلل تغيرات الاستهلاك بمرور الوقت، ووضع مفارقة دايتون التي تشير إلى أن فرضية الدخل الدائم في صيغة الوكيل الممثل المعتاد والتي تقوم على مفهوم الوحدة الاقتصادية الممثلة غير متسقة ذاتيا نظرا لأن سلوك سلاسل متوسط الدخل الزمنية يعني ضمنا أن التغيرات المؤقتة في الدخل تؤدي إلى تغيرات كبيرة في الاستهلاك، وليس إلى تغيرات صغيرة.

وخلال هذه الفترة، ازداد اهتمام دايتون باقتصاديات التنمية. فتناول على سبيل المثال ما يطلق عليه اسم «مصيدة الفقر». واعترض على الرأي الشائع بأن سوء التغذية يمنع الناس من تحقيق دخل كاف للهروب من الفقر. واستنادا إلى بحوث تم إجراؤها في الهند، أثبت دايتون وشانكار سوبرامانيان من جامعة كورنل أن التغذية الكافية لا تكلف سوى ٥٪ من الأجر اليومي. وتوصلا إلى أن سوء التغذية نتيجة للفقر وليس سببا له.

وفي كتاب «الهروب الكبير: الصحة والثروة وأسباب عدم المساواة» (*The Great Escape: Health, Wealth, and the Origins of Inequality*) المنشور في عام ٢٠١٣، يشير دايتون إلى أن المساعدات الأجنبية يمكن أن تتسبب في أضرار نظرا لأنها تجعل حكومات البلدان المتلقية موضع مساءلة أمام البلدان المانحة الأجنبية وليس أمام شعوبها. ويؤدي ذلك إلى الإخلال بالعقد الاجتماعي بين الحكومة ومواطنيها، مما يحد من الحافز على تعزيز المؤسسات وتنفيذ الإصلاحات الأخرى اللازمة لتحقيق التنمية المستدامة. ويقول دايتون «إن الحجة القائلة بأنه يتحتم علينا القيام بأمر ما لأن هؤلاء الناس فقراء للغاية تبدو حجة قوية جدا، حتى وإن لم تكن كذلك. فالشيء الوحيد الذي لا تود القيام به هو إلحاق الضرر بهم، ولكن ذلك تحديدا هو ما يحدث الآن».

وتبدو هذه الحجج جدلية للغاية. فقد كتب دانكن غرين من أوكسفام بريطانيا على مدونة المنظمة التي تعمل في مجال مكافحة الفقر «لدينا العديد من المزايا القوية والملموسة في صورة ممرضين ومدرسين ولقاحات وحالات وفاة أمكن تجنبها وغيرها في مواجهة ادعاء مبهم بحدوث أضرار مؤسسية طويلة الأجل لا يستند إلى أدلة قوية. ويرى آخرون أن المشكلة الأساسية تكمن في كيفية تقديم المساعدات الأجنبية. ويستمر الجدل».

وتستمر أيضا المناقشات حول الأطروحة الأساسية للكتاب — وهي أن السبعين عاما الماضية شهدت تراجعا ملحوظا في معدلات الفقر وتحسنا كبيرا في مستويات الصحة حول العالم. وكتب يقول دايتون «لولا العمولة لما كان من الممكن أن تتحقق هذه الإنجازات». ويرفض دايتون فكرة أن العمولة هي المشكلة، مؤكدا على أن المذنب الحقيقي هو «الفائزون الذين يسحبون السلم وراءهم» — وتنتج عن ذلك سياسات عامة ضعيفة تؤدي إلى سعي الشركات للكسب الربحي وعدم كفاية خدمات الرعاية الصحية وثبات الأجور. وترد مختلف جوانب هذه الأطروحة في دراسة